



منذ أن انتهى عصر الشاه في إيران، وتولى الخميني سدة الحكم بعد أن أطاح بصانعي الثورة الحقيقيين؛ منذ ذلك الوقت ومنطقة الشرق الأوسط تشهد استقطاباً طائفياً تزيد حدته أحياناً، وتدور زواياه أحياناً أخرى بحسب المعطيات السياسية والمجتمعية وصيرورتها في المنطقة وبشكل خاص في المشرق العربي.

الخميني، وبوقاحة سياسية، أطلق مبدأ تصدير الثورة حين قال: "بعد ستة أشهر سنكون في الحجاز"، وفي هذا الكلام ما هو أبعد من السياسة، بل إن منطلقه ومستقره العقيدة الساعية للسيطرة على المنطقة ببلوسم التشيع المدعوم من القوى الدولية بشكل أو باخر، وهو دعم يؤكد الصمت العالمي على عبث إيران في المنطقة، وهذا (المشروع الخميني) والذي تديره حالياً آيات قم، هو امتداد لمشروع تاريخي عبث بإيران السنوية، وامتدت أيامه إلى المشرق العربي إلى أن جاءت معركة جالديران والتي صاف تارิกها (1514-8-23)، وكانت بمثابة قطع لتلك الأيدي، أو قصرها، عن الاستمرار بالعبث ببنية المنطقة وجودها.

ولأن التاريخ يعيد نفسه، أو يعيد أحدهاته كما يقال، فما أشبه اليوم بالأمس. معركة (جالديران) التي أغفلتها كتب تاريخ الكثير من الأنظمة العربية رغم أهميتها، تمثل لحظة الذروة الحقيقة لصراع شبيه بما تعيشه منطقة المشرق العربي برمته، فما هي الإسقاطات التي حملتها تلك المعركة لواقعنا الحالي؟

الحالة التركية التي باتت تشكل للكثير نموذجاً سياسياً يمكن اعتماده في أي طرح سياسي، فيما لا يراه آخرون كذلك، إلا أنه لا يمكن لمراقب أن يتغافل عن الحالة السنوية التركية والحالة الشيعية الإيرانية في قراءته للواقع السياسي الحالي، فإيران شيعية المذهب والسياسة، وفي تركيا وإن بدا المشهد معقداً إلا أن الأزمات الكبرى تعيد إحياء العمق الديني لدى الشعوب، ولا اعتقاد أن هناك أزمة أكبر مما تعيشه المنطقة في هذه الآونة.

أما تحرك نظام بشار الأسد ف يأتي بكليته منسجماً مع تحرك الفلك الإيراني، مصالحياً، من الناحية السياسية، وعقائدياً من الوجهة الدينية، ولعلنا هنا نشير إلى ما قاله بشار الأسد أمام مجموعة من علماء السلطان في دمشق: (من الخطأ تسمية دمشق بدمشق الأمويين.. والنموذج الإيراني يمثل الإسلام الحقيقي).. وهذا الكلام بمثابة انقلاب فكري يفرضه الأسد على الذاكرة الحقيقة والجمعة للسوريين، بل وللعرب فإذا لم تكن دمشق حاضرة الأمويين، فمن تكون؟!

الحقيقة أن الأسد يعي ذلك، ولكنه يبحث عن الإنسجام الكامل فكريأ، وعلناً، مع المشروع الإيراني الذي يرى فيه (الإسلام الحقيقي)، وما ينطبق على السلوك الأسدية في سوريا التي باتت القاعدة الأهم للمشروع الإيراني وتساوى في أهميتها بالنسبة

طهران مع العراق والأحواز وهذا ما لم تخفه آيات قم حيث قال أحد أهم مراجعهم: (أن نخسر الأحواز أهون من أن يسقط نظام بشار الأسد) مع العلم أن أكثر من تسعين في المئة من النفط الإيراني هو من الأحواز العربية التي تطل على مياه الخليج العربي.

وما يصح على سوريا ينطبق كذلك على حزب الله وحاضنته في لبنان، وينطبق على الحوثيين في اليمن بالإضافة إلى الخلايا النائمة في بقية مناطق جزيرة العرب.

السياق التاريخي يؤكّد أن ما حدث من استقطاب طائفي في المنطقة قد يصل لمرحلة انفجار بدأت ملامحه تتكشف، وهذا ما حدث في التاريخ، وهنا نشير إلى حالة الاستقطاب الصفوی العثماني (الشیعی السنی) الذي وصل إلى لحظة الصدام العسكري الكامل في 1514-8-23 حيث كانت موقعة (جالدیران) بين الدولة العثمانية بقيادة سلیم الأول وبين قوات الدولة الصفویة بقيادة إسماعیل الأول، وانتهت بانتصار العثمانيین، ووقف التوسيع الصفوی الشیعی لمدة قرن من الزمان كما أنهت مؤازرة العلویین داخل الدولة العثمانية للدولة الصفویة. كما ترتب على تلك المعركة بالإضافة إلى السيطرة على تبریز عاصمة الصفویین سیطرة السلطان سلیم على العراق وأذربیجان ثم توجه إلى سوريا حيث أکمل انتصاراته على الممالیک حلفاء إسماعیل الصفوی بمعرکة مرج دابق. ولكن السؤال ما الذي أوصل الأمور إلى مرحلة الصدام العسكري بين الجانبین.. الصفویون ويمثلون المذهب الشیعی.. والعثمانيین ويمثلون المذهب السنی؟

لقد سبق هذه المعركة إعلان إسماعیل الصفوی فرض المذهب الشیعی على أهل إیران الذين كانوا في غالبيتهم من أتباع المذهب السنی، وهذا الفرض كان بالقوة والبطش وفي هذا يقول قطب الدين الحنفی في كتابه الأعلام: "إنه قتل زيادة على ألف ألف نفس، وقتل عدة من أعظم العلماء بحيث لم يبق من أهل العلم أحد من بلاد العجم، وأحرق جميع كتبهم ومصاحفهم".

ونقل إسماعیل الصفوی دعوته إلى الأقالیم المجاورة مثل العراق وخرسان وأذربیجان وهو ما يمكن إسقاطه في عصرنا على تسمیة (تصدیر الثورة) وهو الأسلوب الذي ابتدأه الخمینی بعد تسلمه الحكم في إیران..

ومما سبق لحظة الصدام المسلح، استثمار إسماعیل الصفوی واستعماله لقبائل القزلیاش التركیة، وهي قبائل علویة المذهب، إلى جانبه وجعلهم عماد جیشه، وقد كانت مستاءة من التدابیر الممالیة والإداریة العثمانیة وهیأت الظروف لحدوث اضطرابات كبيرة في الأناضول (وسط تركیا حالیاً)، وهذا يجعلنا نفهم مدى العمق في العلاقة بين العلویة السیاسیة وبين إیران الشیعیة في تعاملها مع ملف الثورة السوریة، فها هي مرة أخرى تستخدمهم كوقود في محاربة الشعب السوری لتحقيق نفوذها الإمبراطوري، هذا فضلاً عن استخدام العلویة السیاسیة داخل تركیا كورقة ضغط على الحكومة التركیة.

الواقعیة السیاسیة (البراگماتیة) التي تستخدمها إیران في كل سیاستها إزاء ملفات المنطقة كلها، هي السیاست نفسها التي لجأ إليها إسماعیل الصفوی، فإیران التي تتشدق بالمبادئ، نراها تمارس كل الموبقات عندما يرتبط الموضوع بمصالحها سواء الداخلیة أو في السیاست الخارجیة، فنراها تصف الولايات المتحدة على سبيل المثال بالشیطان الأکبر، بينما هي تنسجم مع سیاستها في كافة الملفات وهنا نشير إلى ما قاله علي لاریجانی أحد مهندسي السیاست الإيرانية خلال العقد الماضی (الولا طهران لما سقطت بغداد وكابول).

وبالعوده إلى إسماعیل الصفوی، فيعد خسارته المعركة تحالف مع البرتغالیین، وكانوا حينها إحدى القوى العالمیة، ضد الدولة العثمانیة السنیة، وكانت الاتفاقیة بينهم تنص على: "أن يقدم البرتغال أسطوله لیساعد الفرس في غزو البحرين

والقطيف كما يقدم البرتغال المساعدة للشاه اسماعيل لقمع الثورة في مكران وبلوجستان، وأن يكون الشعبان البرتغالي والفارسي اتحادا ضد العثمانيين"، بل وصلت الأمور إلى ما هو أبعد من ذلك إذ وجه البوكيerek (لقب الملك البرتغالي) إلى الشاه اسماعيل الصفوي الرسالة التالية: (إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد)

وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوي تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصوفيون مصر والبرتغاليون فلسطين، بل إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط كما يقول المؤرخون، وهو الحلم الذي حققه الأسد الاب ومن بعده الإبن للفرس.

إذاً، هو المشروع نفسه، الذي مزق الأمة، قبل 500 عام، مازالت أدواته موجودة.

موقع المثقف الجديد

المصادر: